

فتاة البلو جينز والقوات المسلحة

يوم الأحد ١٨ ظهرت صورة الفتاة التي سحلها جنود القوات المسلحة في ميدان التحرير، وانتشرت خلال اليوم انتشار النار في الهشيم في كل وسائل الإعلام العالمية. وفي السادسة مساء اتصلت بي جريدة الجارديان البريطانية، التي كثيرا ما أكتب لها، وقالت أنها تريد مقالا حول الصورة، فهل أكتبه أم يكلفون آخر؟ وكنت قد لاحظت أثناء النهار - وفي المكالمات الهاتفية الكثيرة التي تلقيتها من إذاعات العالم - النغمة التي تنبئ بالسكة التي يمشي فيها تفسير الصورة في الغرب: كمثل من أمثلة "قمع" مجتمعاتنا العربية "الذكورية" لنسائها. ورأيت أنه من الهام جدا وضع الصورة في سياقها الصحيح، وهو سياق النضال السياسي الوطني الثوري الذي نعيشه الآن - فكان هذا المقال .

ومن الملفت أن الجريدة قد تلقت إلى الآن أكثر من أربعمئة تعليق عليه، كما حظي بأكثر من ثلاثة آلاف ترقية للفيس بوك - وليس هذا إلا دليلا على استمرار اهتمام العالم وشغفه بثورتنا .

ولا أستطيع أن أكتب هذه الكلمات، في صباح الأربعاء ٢١ ديسمبر، دون أن أسجل مشاعر الفخر والاطمئنان التي أحسست بها في مظاهرة مساء أمس النسائية التي طافت التحرير ووسط البلد وبها آلاف النساء، وحولها مئات الرجال يساندونها. وكانت الهتافات: "عَلِّي راسِك عَلِّي راسِك / رَجَلِك اشرف م اللي داسك"، و"المشير فين؟ بنات مصر اهم!" و"ثورتنا العسكر سرقوها / الستات هيرجعوها!" ومن أكثر اللحظات تأثيرا لحظة أن دخلت سيدة مُسنّة وسط الحلقة وأخذت تهتف "سامعة أم شهيد بتنادي" فتهتف وراءها "أخدوا حقي وحق ولادي" وكلنا نعلم أنها هي أم الشهيد، وصوتها لا يكاد يطلع فتسانده الأصوات كلها، وعلى عكس ما يحدث عادة لم يختطف أحد الريادة منها، بل تزعمتنا إلى أن اكتفت.

أما اللحظة المبهجة فكانت حين انطلق الرجال فجأة بتلقائية يهتفون: "الرجالة فين؟ الستات أهْم"، فردّت النساء: "إشهد يا محمد محمود / رجالتنا كانوا أسود". هذه هي مصر: رجال تحميهن النساء وتفاخر بهم، ونساء يحميهن الرجال ويفاخرن بهن .

المقال:

هي شابة رشيقة، ترقد على ظهرها، يحوطها أربعة جنود، إثنان منهم يمسكون بذراعيها المرفوعين ويسحلونها. هي لا تقاوم - ربما قد فقدت الوعي؛ لا نعلم لأننا لا نرى وجهها. ترتدي الجينز الأزرق وحذاء رياضياً. لكن نصفها الأعلى مكشوف: نرى بطنها، وحمالة الصدر الزرقاء، وذراعيها العريانين الرقيقين. وحول هذا النصف الأعلى، ومكونة هالة سوداء حوله، عباؤها، تلك التي انتزعت عنها والتي تشير إلى تحجبها .

من ستة سنوات، وعصابة حسني مبارك تعمل على تزييف الانتخابات البرلمانية للعام ٢٠٠٥، بدأت المظاهرات والاحتجاجات تظهر بشكل ملفت في الشارع المصري، وتصدى لها النظام ، ليس فقط بالشكل الذي اعتدناه باستخدام مجندي الأمن المركزي، وإنما بقوات مبتكرة: ميليشيات من البلطجية المدربين. ضربوا الرجال وسحلوهم، أما النساء فكانوا يمسكون بهن، يمزقون ملابسهن ويضربوهن ويتحرشون بهن . كانوا يحاولون أن يضعوا في مخ الناس أن السيدة أو الفتاة التي تخرج للتظاهر لا تمنع في أن يُتحرَّشَ بها جنسياً .

ابتكرت النساء تكتيكات واقية: طبقات من الملابس، بوديز بدون أزرار، بنطلونات يعقد رباطها حول الوسط - واستمررن في التظاهر. ومما يذكر أن الكثير من مبادرات المجتمع المدني التي ظهرت وقتها، فشكَّلت جزءاً أساسياً من الحركة الوطنية، مثل «شايفينكوا» و«ضد الفساد» و«الشارع لنا»، كانت من إنشاء وتحت قيادة نساء .

لكن هناك علاقات تغذية متبادلة بين الممارسات: مبارك وعمر سليمان يجعلان من مصر المكان المفضل لتقديم خدمات التعذيب للولايات المتحدة؛ ترسل لهم من "تشتبه" في ارتكابهم - أو في نيتهم لارتكاب - أعمال إرهابية ليستجوبوهم أو يعاقبوهم؛ فيصبح تعذيب المواطنين وباءً يضرب مؤسسة الأمن عندنا. يتحرش بلطجية النظام بالمصريات على خلفية سياسية قمعية؛ فترتفع معدلات التحرش بالنساء في شوارعنا إلى مستويات غير مسبوقة .

إلى أن جاء ٢٥ يناير. جاءت الثورة وجاء معها عصر الشهامة والفروسية. ومن أجمل ما لاحظته الجميع في شوارع مصر وميادينها في الأيام الثمانية عشر في مطلع الثورة المصرية الغياب التام لأي مظهر من مظاهر التحرش. صارت المرأة

حرّة: تمشي وحدها، تدخل في نقاش مع أغراب، تتحجب تنتقب تنكشف، تدخن
تضحك تبكي تنام. وأخذ كل رجل وشاب وقتى على عاتقه مهمة حمايتها ومساندتها.
وأسميناها أخلاق الميدان.

والآن ثورتنا في صراع مصيري مع النظام القديم والقوات المسلحة .

والشابة في الصورة هي جزء من هذا الصراع .

منذ يوم الجمعة والقوات المسلحة تتعامل بكل وضوح مع المحتجين المدنيين في قلب
العاصمة. المحتجون معتصمون اعتصاماً سلمياً في شارع مجلس الشعب ليعبروا
عن رفضهم لتعيين المجلس الأعلى للقوات المسلحة الدكتور كمال الجنزوري رئيساً
للوزراء .

أعلن الجنزوري إن العنف لن يستعمل في فض الاعتصام - ثم بدأت القوات المسلحة
في التعامل مع المعتصمين. في الأسبوع السابق كثرت عملية الاختطاف؛ البوليس
الحربي، وفيما يبدو سلاح المظلات، يختطفون النشطاء من الشوارع، يضعونهم في
سيارات بدون أرقام، يستجوبونهم ويضربونهم. ويوم الجمعة أخذوا "عبودة"، أحد
شباب الاعتصام، وحين أعادوه كان وجهه مشوها بالضرب لدرجة طمس الملامح؛
وهكذا بدأت حرب الشارع المشتعلة حول شارع مجلس الشعب منذ وقتها .

المعتصمون يقذفون الجيش بالحجارة. الجيش يطلق النار على المعتصمين، ويقذفهم
بالحجارة وقنابل المولوتوف، والصيني المطبوع بشارة مجلس الشعب، والكراسي،
والدواليب، وألواح الزجاج، والشماريخ. سحبوا الشباب إلى داخل مبنى البرلمان
ومبنى رئاسة مجلس الوزراء وضربوهم وكهروهم. بنات أختي ضربن هكذا .

ضربوا شاباً انْتُخب عضواً في برلماننا الجديد وتهكموا "انت فاكر البرلمان هيجميك
يابن الـ...؟" أخذوا سيّدة خيرة، معروفة بإمدادها الثوار بالعصائر والسندويشات،
وصفعوها وصفعوها إلى أن اعتذرت هي لهم. قتلوا منّا إلى الآن عشرة، وجرحوا
أكثر من مائتين، وسحلوا الشابة ذات الجينز الأزرق، فاقدة الوعي، مُعرّاة، في
الميدان .

رسالتهم: كل ما ثرتم عليه موجود هنا - وبشكل أبشع. لا تضعوا آمالكم في الثورة،
ولا في البرلمان. نحن النظام، وها نحن عدنا .

ما لا يحسبون حسابيه: أننا كلنا كبرنا، نضجنا. سلاح الفضيحة والعار لم يعد يصلح ولن ينفعهم ضد النساء. انتهكوا الشابات بـ"اختبارات عذرية" فقامت إحداهن - سميرة إبراهيم - تقاضيهم. ضربوا وسحلوا وعذبوا الشابات فعدن إلى الميدان يسجلن شهادات فيديو، ويقدمن بلاغات؛ نساء مصر مصرات على الاستمرار في العمل وفي الكفاح .

اختارت الشابة ذات الجينز الأزرق المحافظة على خصوصيتها؛ أما صورتها فقد صارت أيقونة. وكما دمر وجه خالد سعيد المعبّد أي مصداقية لوزارة الداخلية، فقد نسفت فتاة الجينز الأزرق سمعة القوات المسلحة .

نشر هذا المقال في جريدة الجارديان البريطانية في ١٨ ديسمبر ٢٠١١